

# القصص

مهرارة الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

## العروس . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يرُفها اليوم أن تجلس إلى المرأة جَلَسَتْهَا الطويلة ،  
فدلقت إلى النافذة تنوء بهمّ ثقيل على صدرها ، وانكأَت بِمِرْفَقِهَا  
على حافة المقعد ، ثم أزاحت السجف وجلست ترقب الطريق .  
وصكّت أذنيها غشاء الغشايات في بيت جاريتها كرهها نايياً كأنما  
بني إليها الشباب . . .  
لقد جاوزت (إحسان) العشرين وما تزال قعيدة الدار ،  
تنتظر الخاطب المجهول يدق الباب ليطلب يدها . أتراها لم تكن  
أجل من فلانة وفلانة وفلانة ؟ بلى ، وإنما لخير منهن ؛ ولكنها  
تزوجن جميعاً وانتهى بهن القدر إلى المستقبل الذي تحلم به كل  
فتاة ، وهي وحدها ما تزال تنتظر . . .

\*\*\*

وأخذ الزمن يتراجع ، كما تُطْوَى سَبِيحَةُ الخيالة (١) فإذا  
هي ما تزال بنت السادسة عشرة ؛ تردها ننته أجمال ، وتسيطر  
على نفسها كبرياء الغني ، وتبثبها أهواء الأئونة الباكرة ؛ وإذا  
هي بين أترابها في المدرسة - كما كانت - معقدُ النى ، ونجوى  
الخواطر ، وملتحق نظرات البظلة ، لم يجتمع لواحدة من رفاقها  
يومئذ ما اجتمع لها مما تفخر به الفتاة ؛ فلم تكن لتشاركون  
الحديث إلا على كبرياء وأنفة ؛ وحين يجري حديث الشبان  
بينهن في همسٍ موسيقىٍ مُبْطِرِبٍ ، كانت تمط شفقتها في سخريه  
عابثة ، ثقةً بأنها الفتاة المروقة الشهامة ، كأن على من دونها

من الفتيات أن ينتظرن ربناً مختار هي فتاها المجدود ، ثم تترك  
لهن من بعدُ حقّ الأمل في الزوج الذي يشتهين . . . !  
وكان لها من نشأتها وجه أباها ما يُفصح لها في الأمل ،  
وعدت لها أسباب النى العريضة . ولكن أباها قدم مات ! أفينقص  
من شرفها وجمالها وراثتها أن أباها قدم مات . . . فأين الخطاب  
يزدلفون إليها ويزدحمون بيابها في طلب الرضى والقبول ؟  
إنها رهينة الدار منذ سنوات خمس ؛ فلا تبصر الطريق  
- على رغم عصريتها - إلا من خصاص النافذة ، ولا تفارق  
محبسها إلا في ظل أمها الأيم المجهوز ؛ فلم تكن تعرف من  
الشبان غير ابن عمها (فريد) . لقد كان فيها ترى مثال الشاب  
الذي يداعب خيالها . لم يكن قد أتم دراسته العالية بعد ، ولكنه  
أتم الرجولة ؛ وكان على فقر من المال ، ولكنه على غنى في  
النفس ، وكامل من الأدب والفضيلة . كم كانت تُعجب برجولته  
ونبله ! ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أن تمحّه أكثر من  
الاعجاب . آه لو كان على سعة من المال . . . لتمنّت أن يكون  
زوجها الذي تقاسمه الحياة . . . من أين له أن يهبى لها أسباب  
الرفاهية التي تشتهي . . . ؟

لم تكن تدري أنها تحبه إلا يوم جاءها البشير أنه خطب  
لنفسه فلانة ، فأغلقت من دونها الباب وجلت وحدها تبكي  
ماساعفتها الدموع . ولم يكن يدري أنه يحبها إلا يوم زارها من  
بعدُ ، فإذا في عينها تساؤل وجواب ، وعلى شفيتها ابتسامة  
ذابلة ، ثم إذا هي تقرّ فتضرب الحجاب بينها وبينه ، خشية أن  
يرى على وجنتها علامة التأثر رشحها الدموع . . . !  
ولسكنم تمامها لنفسه وبات يرعى خيالها ليالٍ طويلة ، ولكنه  
كان يزجر نفسه أن تؤمل الزواج من إحسان ؛ وأين فقره وإنلاله  
من غنى إحسان . . . !

\*\*\*

(١) سبحة الخيالة : شرط البنات .

(خديجة) جاريتها وزميلاتها في المدرسة ؛ وما أكثر ما كانت تركبها بالدعابة الثقيلة والنكات اللاذعة حتى تظفر من عينها دموع الذلّة والانكسار ! لم تكن خديجة في مثلي جمال إحسان ، ولها قليل من جاه أبيها أو ماله ؛ ولكن ، هاهي ذى تزوج وتمزق لها الموسيقى ، وإحسان ما تزال تنتظر . . . !

\*\*\*

وانقطعت سبباً الذكرى ، فأفادت إحسان من غفلتها ، وراحت تسمع الدموع عن وجنتها بأطراف السجف وتتنظر الطريق وأخذت عينها بريق الكسرات اللوثة مدلاة من حبالها ، يتلاعب بها الهواء تلاعب اليأس والهلم بنفسها ؛ واضطربت في مرأى عينها الرايات الخضرة . اضطراب أوراق الشجر هبت عليها رياح الحريف . . . !

لقد كانت وحدها في البيت ، فلم ترافق أمها إلى بيت خديجة لترى إليها التهتهة . منذ أسس ، حين زارتها صديقها داعية ، وهي لا تستقر على حال من لدغ الغيرة وألم الحرمان ! وقدوت - إن هي أجابت الدعوة - أنها ستكون بين الدعوات موضع السخرية والاشفاق ؛ وما تحب أن يسخر منها أو يشفق عليها أحد . . . !

ومرّ من تحت النافذة فوج من الشباب يقعدون بيت العروس ، وراحت إحسان تختبر فراستها ، لعلها أن تعرف زوج صديقها من بين هؤلاء . أفكانت تريد ذلك حقاً ؟ أم هي تريد أن تعرف من بينهم رجل أحلامها الذي صحبتته في الوهم سنوات . . . ؟ وزفرت زفرة خافتة ، وراحت تحصى سنينها التي عمّرتها على الأرض . يوليونا 7 اثنان وعشرون سنة . . . ! لقد تزوجت أمها في الثالثة عشرة ، فلعل إحسان لتزوجت في مثل سن أمها - كانت موشكة أن تصير جدة . . . ! وركبها اليأس ، واصطلحت عليها الأفكار السود ، ولم يجد لنفسها طاقة بالوحدة بعد ؛ فازينت وأمرعت إلى بيت العروس تتفرّج . . . !

وهاجت أحزانها مظاهر الفرح ، وبهرتها الأنوار البراقة ، ولدغتها ثعابين الغيرة من عنقايد الزهر متعاقبة متشابكة ، ورنّت في أذنيها ضحكات النساء كأن قلباً من الزجاج ينكسر . وانتظم النساء حلقات - على عادتهن - يهايمن عايات ضاحكات ؛ فوقع في نفسها أنهن يهايمن في شأنها ، فانطوت على نفسها في زاوية من البهو تحاول ألا تتحدث إلى أحد ، أو يتحدث إليها

ومسحت الدموع عن وجنتها ، وقالت تمزى نفسها :  
« لقد تزوج فريد ، فما أسقى على زواجه ؟ إنني لجميلة ، وإنني لثنية ، وإن الشبان ليسرعون إلى ذوات الجمال والمال »  
وظافت برأسها أحلام ، وزينت لها الأمانق دنيا بهيجة من الخيال أنعمتها أنسا وسعادة ؛ واستنامت إلى المنى ، تصبح وتمسى حلة بالخطاب المجهول

ونصرت الأعرام عاماً بعد عام ، وإحسان تعيش من أحلامها في رضى وقناعة ؛ وحسبها من مسرات الشباب أنها توظف كل يوم واحداً من شباب أحلامها تساقيه المنى وتبادلها الحب ، فإذا اقتبعت من أحلامها السعيدة قلب حين ، كأنما هي من حبيبها على ميعاد

وأخذت زهرات الربيع تنتثر أوراقها دامية على الشوك ، لأن البستان يمحول أن تمتد إليها اليد التي تشمرها أنها جميلة ؛ ولكن بقيت على ثمر الزهر ابتسامته الناعمة ، لأنه من أحلامه على رضى وقناعة

لشد ما كان يمجج شباب الناحية بإحسان ! فما يحلو لهم سمر إلا الحديث عن جمالها وفتنتها ، وما يطيب لهم مجلس إلا يذكر كالمها وشمالها ؛ ولكنها على ما حلّت من نفوسهم أكرم منزلة - لم تبلغ أن تكون موضع الأمل عند واحد منهم أن تصير زوجته . لقد تقاصرت دونها المنى ؛ من إياها ، ورغناها ، وحرص أهلها على التقاليد

ومن أين لغير القليل من الشبان أن يرضى مطامع إحسان ؛ من أين له ( المعجزة المالية ) ليؤدى لها المهر الذي رضاه ، وينفق في أكلاف العرس ما يرضى التقاليد ؟

وظالت الأيام على العذراء الحاملة ، وبدأت تملّ وحدتها الفارغة ، وأخذت تسيء الظن بجمالها وفتنتها . ولم تجد غير المرأة تبثها خواطرها ، فتعودت الجلوس إليها الساعات كل يوم ، تبادلها الرأي فيما تظهر به جميلة جذابة ؛ لعلها أن تجد بالجمال المصنوع رجلها الذي يحلم به . . . !

أفتستطيع المرأة أن تمنحها الزوج إن منحها الجمال ؟ . . . ! واستيقظت من أحلامها حين تواتت عليها الأنباء بأن صواحبها اللاتي كانت تسخر منهن ونزهي عليهن بجمالها وجمالها - قد تزوجن واحدة بعد أخرى ، واستقرت بهن الحياة في بيت الأمومة وهذه صديقة أخرى تزوج . لقد طالما هزئت إحسان من

أحد . وحُيِّل إليها أن التبت التي توجهها إليها صواحبا -  
سخرية وشماة . . .

« العُقبى لك . » ما أحرهن أن يترجما إلى اللغة الصريجة  
فيقولن : « الرحمة والرأه لك أيتها الناس المسكينه . . . ! »  
وأدبرت - على رد الخريف - أكوابُ الشراب المثلوج ،  
ووزعت الحلوى في اللعب المذهبة الثمينة ، وتزاحم النساء  
بتخاطفنها كأنما يقتضين الأجر على ما شرعن العروس بالحضور  
للتهنئة . . . ! وراأت إحسان أنها لم تفرج مما بها ولكنها  
زادت هماً على هم ، فأسرت عائدة إلى الدار

ولم تنم المسكينه ليلتها ، ولكن أخذتها إغفاءات متقطعة  
تتخللها الرؤى والأحلام . وعاد تفكيرها في الزواج بعض  
عملها اليومي ، ولكنها لم تمد تفكر في الرجل - إذ تفكر  
في الزواج - أكثر مما تفكر في مظاهر الاحتفال ، وزينة  
العرس ؛ وفيمن تدعو ليشاركها الفرح من نساء المدينة وشبان  
المدينة ؛ كانت تفكر في الانتقام لكبرياتها التي زعمتها ريبست  
يوم عرس خديجة . سيكون احتفالاً خيراً من احتفالها ، وسيرتين  
البيت أروع مما ازتين بيتها ، وسيجتمع لها من سراة المدينة  
ووجهائها من لم يجتمع لعروس قبلها . ستحاول يومئذ أن تسمر  
الغيرة والحسد في قلوب كل صواحبا ، أكثر مما كانت تسمرها  
بكبرياتها وتبها عليهم وهي ما تزال صغيرة تطلب العلم معهن  
بالمدرسة ، أو تشاركهن اللعب في فناء الدار . . . !

\*\*\*

كان العام قد استدار ، وأخذت زهرات الربيع تفتح ويضوع  
أريجها في الجو ، ولكن قطرات من الندى كانت تبسلها كدمعة  
الحزن في وجه عذراء مستحية . . . ولكنها تنتم ؛ أكانت  
تصطنع الابتسام لتخفي عن الناظر بعض ما في صدرها من هم ،  
أم كانت هذه دموع الفرح على وجنتيها . . . ؟

وأطلت الفتيات من النوافذ يتفرفن خطيباً إحسان خارجاً  
من دارها في جماعة من أهله ؛ ورأين بضعة من الرجال عليهم سياء  
السراة من أهل الريف ، في جلابيهم القضاضة ومعاطفهم السود ،  
يلوون ألستهم بالحديث في لهجة جديدة على أهل الحضر .  
ويبينهم ( أفندي ) واحد يبدو من مظهره ، ونظام لباسه أنه وإن  
عاش في المدينة طويلاً - ما يزال بعض أهله  
وقالت فتاة لأختها :

— « أهو هذا ؟ »

— « بل هو ذاك »

ولم يكن هذا ولاذاك ؛ ولكنه خرج بعد انقضاء الجمع ،  
يتوكأ على نفسه من ثقل وبدانة حشون ثيابه الغالية ، يلوك بين  
شديه لساناً يتفقد بقايا الطعام بين أضراسه ، ولم يُخفِ ميل  
طر بوشه أثر الوشم في صدغه  
وقالت فتاة :

— « أأنه لهو ؟ »

فأجابها صاحبها بابتسامة

وبرق الماس في أصبعه ، ورف الفهب من سلسلة ساعته ،  
فقال الفتاة :

« إنه لعني . . . ! »

\*\*\*

وكان الحفل الحاشد بعد أيام ، فاجتمع فيه من مظاهر البذخ  
والنفي ما لم يهيا لسكان الحى أن يشهدوا مثله منذ أعوام ؛  
فأقيمت المقاصف ، ووزعت الهدايا ، ودقت الطبول ، وعزفت  
الموسيقى ، وبجأوت ألحان المننين والمغنيات بين فناء البيت  
وأعلاه ، وتناثرت نجوم الكهرباء تنقل إلى الأرض بعض معاني  
السماء ، وعبق أريج الزهر يحمل إلى أهل الحياة أنفاس أهل  
الجنة . . . وإحسان في مجلسها راضية ناعمة ، تشرف من علم  
على الحفل وزينته نفوراً مزهوة

لقد كانت فرحة الزواج عندها أن تشهد لنفسها مثل هذا  
الحفل ، وقد شهدته على أكل ما أبدعته في خيالها ؛ وبلفت  
ماملها في الظهور على صواحبا بما يتقاصرن عنه من بذخ  
وإسراف . أما الزوج ، أما الرجل الذي سترتبط إليه ويرتبط إليها  
فلا فكالك مدى الحياة ، أما رجل أحلامها الذي أحبته زماناً من  
طول ما صحبها في الخيال - أما ذاك ، فاعليها أن تظل نائمة تحلم  
ما دامت قد اتقمت لكبرياتها الجريح

لم تفتش المسكينه عن الرجل الذي سعدت في الوهم بصحته ،  
وذاقت معه على البعد نعيم الحياة ، وتنورت من فكرها فيه عالم  
الحب وذنبا الجمال . . . وراحت تفتش عما يرضى الناس ويطلق  
ألستهم بالاعجاب . . .

وباعت سعادة العمر ؛ واشترت سعادة ليلة . . . !

محمد سعيد الصديار